علاقة الصدق

بالخطاب الشعري

تتوقف بواعث الشعر على الانفعالات التي تؤسس للتجربة الشعرية الحقة، هي التي توجد بين ذات الشاعر وموضوع القصيدة وتخرجه في صورة نص أدبي له مقومات النجاح لأن الشعر قبل أن يكون كلامًا و ألفاظا و أساليب ومظاهر جمالية فهو أمور تدور في نفس الشاعر، وتختلج في صدره لينطق بها لسانه بعد ذلك.

والخطاب الشعري قبل أن يكون خطابًا مكوناته ألفاظ الشاعر وأخيلته و أساليبه وموسيقاه فإنه كان تجربة شعورية، وبمعنى أوضح كان مؤثرًا دفع الشاعر واعتمل في فكره ووجدانه فحركه، والفكر والوجدان – وهما جناحا التجربة – لابد أن يتوفر لهما عنصر الصدق، وقد يتبادر للذهن أن الصدق المراد هنا هو مطابقة التجربة للواقع، بمعنى أن يصور الشاعر الواقع في قصيدته، أو بمعنى آخر هو مضاد الكذب، والصدق بهذا المفهوم ليس هو المطلوب في التجربة الشعرية، وإلاّ لعددنا القصائد ذات الموضوع الخيالي كاذبة، ولعددنا ما يحلم به المبدعون في قصائدهم وهمًا وضلالاً مبينًا.

إن الصدق المراد في العمل الأدبي، هو الانفعال الحقيقي بالتجربة والتأثر الصادق بها، إذ لابد من تأثر الشاعر بصدق بموضوع ما ومعايشته مع نفسه والتفاعل معه وإجالته في خاطره حتى يمكنه التعبير عنه بما يؤثر في نفوس السامعين والمتلقين، لأن الشاعر لن يستطيع التعبير بوضوح عن محتوى تجربته، ولن يستطيع التأثير في الآخرين مالم يتأثر بصدق ويتفاعل مع ما يريد التعبير عنه وهذا ما نبه إليه الجاحظ في معرض حديثه عن العاطفة: " قال الباهلي: قيل لأعرابي: ما بال المراثي أجود أشعاركم؟ قال لأننا نقول و أكبادنا تحترق" [1]

١- البيان والتبين، الجاحظ، تحقيق عبد السلام هارون، دار الجيل، بيروت.

إذن هو صدق الإبداع لما يعكسه الشاعر من خبايا نفسه وما تأثر به ووقع تحت سطوته ، وفي ذلك يقول الخليل بن أحمد : " الشعراء أمراء الكلام ، يصرفونه أنى شاؤا ، يجوز لهم مالا يجوز لغيرهم من إطلاق المعنى وتقييده ، ومن تصريف اللفظ وتعقيده ، ومد المقصور وقصر الممدود ، والجمع بين لغاته ، والتفريق بين صفاته ، واستخراج ما كلت الألسن عن وصفة ونعته ، والأذهان عن فهمه ، وإيضاحه ، فيقربون البعيد ، ويبعدون القريب ، ويحتج بهم ، ولا يحتج عليهم ، ويصورون الباطل في صورة الحق ، والحق في صورة الباطل " [1] فالصورة الفنية والصياغة الجيدة هي التي تكسب التجربة قوتها وحيويتها ، وليس من الضروري أن تطابق الواقع وتأمل قصيدة مثل : " البلاد المحجوبة " للشاعر جبران خليل جبران والتي يصور فيها عالمًا مثاليًا خلوًا من الشرور والأحقاد والصراع مجرد حلم وتصور ، لكن الشاعر وصف هذه المدينة و أبرز معالمها ، بل تحول فيها وذكر طبيعتها وطبيعة سكانها من الفلاسفة والعلماء والشعراء ، يقول الشاعر مخاطبًا نفسه بالابتعاد عن هذا العالم الذي نعيش فيه وما يغلفه عن شرور وأحقاد وصراعات دامية تختلف عن نفس الشاعر النقية التي تخالف ما في هذا الواقع المرير من قلوب يقول :

هو ذا الفجر فقومي ننصرف ... عن ديار ما لنا فيها صديق
ما عسى يرجو نبات يختلف ... زهره عن كل ورد وشقيق
وجديد القلب أنى يأتلف ... مع قلوب كل ما فيها عتيق
هو ذا الصبح ينادي فاسمعي ... وهلمي نقتضي خطواته
قد كفانا مساء يدعي ... أن نور الصبح من آماته

١- منهاج البلغاء وسراج الأدباء ، حازم القرطاجني .

فالمبررات التي دفعته إلى التطلع لهذا العالم المثالي والرغبة في الارتحال إليه هي إحساسه بما في الإنسانية من شقاء وتعب ، لذلك لم يحتمل الشاعر المقام في ديار ليس فيها الصديق الذي يأنس إليه ، فهو نبات غريب في بيئة مغايرة ، لذلك وجد نفسه غريبًا يستحيل أن يأتلف قلبه الجديد مع ما حوله من قلوب عتيقة أبلاها الدهر ، ولم يعد يحتمل ما عاناه في الماضي من تلك الدعاوى الكاذبة في حياة مظلمة ، ثم استمع إليه يصور ألوان الشرور وأصناف الألم التي مربها في عالم الواقع المرير ، يقول :

قد أقمنا العمر في واد تسير ... بين ضلعيه خيالات الهموم
وشهدنا اليأس أسرابًا تطير ... فوق متنيه كعقبان وبوم
وشربنا السقم من ماء الغدير ... و أكلنا السم من فج الكروم
ولبسنا الصبر ثوبًا فالتهب ... فغدونا نتردى بالرماد
وافتر شناه وسادًا فانقلب ... عندما تمنا هشيمًا وقتاد

فهو يعيش في واقع كل ما فيه خيالات وهموم ، واليأس يحلق فوقه أسرابا ، ومياه الغدران ليست عذبًا إنما ماؤها سقم ، وثمار هذا العالم و أعنابه كالسم الزعاف ، لذلك لجأ الشاعر إلى الصبر محتميًا به فوجده ملتهبًا ، بل صار رمادًا لا يفيد ، وحاول أن يتخذ من الصبر وسادًا فوجده شوكًا وهشيمًا لا يغنى ولا ينفع .

لذلك هرب الشاعر من هذا الواقع الذي لا يصلح لحياة إلى بلاد عاشها في خياله يقول :

يـــا بـــلادًا حجبـــت منـــذ الأزل كيف نرجوك ؟ ومن أين السبيل
أى قفـــــر دونهـــــا أي جبـــــل سورها العالي ؟ ومن منا الدليل؟
أسراب أنـــت ؟ أم أنـــت الأمـــل في نفـــوس تتمنـــى المـــستحيل؟
أمنـــام يتهـــادى فـــي القلـــوب فإذا ما استيقظت ولى المنـــام ؟
أم غيوم طفن في شمس الغروب قبل أن يغرقن في بحر الظلام ؟

هي – في رأي الشاعر – بلاد محجوبة عنا منذ زمن بعيد ، يفصلنا عنها سهول وقفار وجبال عالية ، و أسوار منيعة ، وهي سراب و أمل يتهادى في نفوسنا ، بل مجرد حلم سرعان ما يتبدد .

وينتقل الشاعر بعد ذلك إلى وصف تلك البلاد المحجوبة عنا . يقول :

يا بلاد الفكـــر يـــا مهـــد الألـــى عبدوا الحـــق وصـــلوا للجمـــال
مـــا طلبنـــاك بركـــب أو علـــى متن ســـفن أو بخيـــل ورجـــال
لست في الشرق ولا الغـــرب ولا في جنوب الأرض أو نحو الشمال
لست في الجو ولا تحت البحـــار لست في السهل ولا الوعر الحرج
أنت في الأرواح أنـــوار ونـــار أنت في صدري فواد يخـــتلج[1]

في هذا الجزء من القصيدة وصل الشاعر إلى إدراك حقيقة عالمه المثالي ، ويرى حقيقة هذه البلاد وهذا العالم المثالي ، فهي بلاد لا يقيم فيها إلا أهل الفكر

١- ديوان جبران خليل جبران .

والحق والجمال ، وهي شعاع من نور يسير في الأرواح وعالم من القيم والمثل تعيش في خيال و أفكار الباحثين عن الحق ، والراغبين المحبين للجمال من الشعراء والفلاسفة.

هذه التجربة الخيالية التي عاشها الشاعر ورسم أبعادها بعين المصور المبدع واستخدم موهبته الفنية في تناول جزئياتها ، وسخر خياله الابتكاري في إبداع صور كلية ذات أبعاد واسعة تحيط بجوانب كل فكرة من أفكاره ، كما سخر خياله التفسيري في إبداع صور جزئية يجعل من نسيجها مادة لتلاحم أجزاء الصور الكلية .

لاشك أن جبران أقنعنا بتجربته رغم أنها خيالية ، لأنه عاشها مع نفسه ، وتأثر بها فعشنا معه في بلاده المحجوبة وتجولنا في أرجائها ، ولأن المبدع ينشىء العمل الأدبي وهو مدرك قيمة التفاعل لذلك يحاول أن يكون بينه وبين عمله تلاحمًا ملموسًا يكسبه قوة التأثير في المتلقي ويمنحه البقاء والخلود .